مدخل إلى النظرية الاجتماعية

((التقليدية والمعاصرة))

إذا كانت النظرية كما أوضحنا تمثل رد فعل إزاء ظروف اجتماعية وفكرية شخصية محددة، فإن الأمر يتطلب مناقشة النقطتين الآتيتين قبل عرض نظرية علم الاجتماع التقليدية:

١. النماذج التي ظهرت قبل علم الاجتماع وحاولت تفسير الواقع الاجتماعي.

٢. السياق التاريخي والاجتماعي الذي ظهرت فيه النماذج الاجتماعية الثلاثة الكبرى.

نماذج ما قبل علم الاجتماع

لقد بذلت جهود متواصلة في كل مرحلة من مراحل التاريخ الإنساني تحاول البحث عن تفسيرات للظواهر الفيزيقية والاجتماعية، وتحاول ان تفهم طبيعة العلاقات الاجتماعية.

وكل نموذج من نماذج التفسير يعبر عن رؤية خاصة للحقيقة الاجتماعية، كما ان تغير نمط التفسير من التفسير الغيبي وغير العقلاني إلى التفسير الديني ثم إلى التفسير العقلاني ثم إلى التفسير العلمي يعبر عن تغير الرؤية لما يحدث في المجتمع، تلك الرؤية التي هي وليدة تغير الظروف والأوضاع الاجتماعية والفكرية من مرحلة الميتافيزيقية إلى اللاهوتية والفلسفية إلى المرحلة الوضعية والعلمية.

النموذج الميتافيزيقي:

لكي نفهم النماذج الاجتماعية المعاصرة فهماً أفضل، فانه يتعين علينا ان نتراجع إلى الوراء إلى بداية عصر المدينة الإغريقية. فقبل افلاطون كانت الظواهر الاجتماعية تفسر بالرجوع إلى آلهة الإغريق الذين كانوا يتصفون بصفات انسانية إلى جانب صفاتهم الخارقة للطبيعة. وكان النظام الاجتماعي الطبيعي خاضعاً كما يرون لرغبات وسيطرة الآلهة الذين يتدخلون إلى حد كبير في أعمال البشر.

وهكذا نخلص إلى ان هذه النظرة ترى ان الكون والمجتمع ينظمهما الآلهة ويخضعان لسيطرتها، وكانت آلهة الاغريق تتصف بخواص انسانية. وهذا النموذج يمثل اسقاطاً للذات الانسانية على القوى الإلهية. وإتخاذ هذه القوى الإلهية وسيلة لتفسير الظواهر الطبيعية و الاجتماعية. وكانت هذه النظرية تمهيداً هاما لظهور المسيحية التي ظهرت بعد ذلك وخاصة في ادخال العنصر الانساني في قوى خارقة للطبيعة وتصور الآلهة بصفات انسانية. وربط هذه الآلهة بالنظام الطبيعي.

النموذج اللاهوتي:

في العصور الوسطى برز دور الكنيسة في اوربا وسيطرت على افكار الاوربيين،ومن ثم فقد اتسم التفكير بالطابع الغيبي واللاعقلاني في صورة مسيحية اوربية فالآلهة صاروا اله واحد يتحكم في الكون كله. ولكنه يرتبط بصورة المسيح الانسان. وكان الوصول إلى هذا الكائن الاعظم يتم من خلال المسيحية، وكانت السلطة السياسية والاقتصادية تتركز في رجال الدين الذين يتحكمون بدورهم في العلاقات بين البشر وصياغة اساليب تفكيرهم ومعارفهم، وبهذه الطريقة تعدلت الفكرة الاولى عن الحقيقة لتطابق التفسير اللاهوتي للكون، بيد أنه من الواضح ان ثمة متصل لا عقلاني بين الصيغة الميتافيزيقية والصيغة اللاهوتية المسيحية.

النموذج الفلسفي:

وكانت المرحلة الثالثة الكبرى في تطور الفكر الانساني ذات طابع فلسفي في مضمونها، وبانهيار سلطة الكنيسة الاوربية ظهرت السلطة السياسية للدولة العلمانية. وبدأت الافكار تتجه أكثر إلى الفرد باعتباره موضع السيطرة ومركز الاهتمام بدلا من الكون الخارجي الغيبي. وبزيادة الاهتمام بالطبيعة والنظام الطبيعي تزايد الاهتمام بالنزعة العقلانية والمادية وبدأ ظهور العلوم.

ومع ان المسيحية قد ظلت راسخة في مجموعة من المعتقدات فقد اتخذت فلسفة عصر التنوير الفرد وما يبدو من عقلانية البشر موضعا لاهتمامها بدلاً من الاهتمام بالكون. وأصبح الانسان وبيئته الاجتماعية مركز لمعرفة. وقد سعى

فلاسفة عصر التنوير إلى فهم النظام الطبيعي وآثاره على الكائنات البشرية لبلوغ الحد الاقصى من السعادة الممكنة والحرية والتنمية المادية والتقدم الاجتماعي العام. وفي ذلك العصر –عصر التنوير- طبقت المعرفة السائدة على التطور الاجتماعي الذي يطرأ على المجتمعات والعلاقات الانسانية.

وهكذا ظهر لنا فلاسفة يهتمون بالموضوعات الاجتماعية مثل "هوبزوميكافيلي، وجون لوك، وفولتير، ودافيد هيوم، وروسو".

ورغم ان هؤلاء الفلاسفة يمثلون وجهات نظر مختلفة اختلافاً جلياً، الا انهم يصرفون الاهتمام إلى تطبيق الفلسفة والمعرفة على امور الحياة السياسية و الاجتماعية. وهكذا تحولت الصيغ الاجتماعية من الاعتقاد في المقدسات والتحكم في الافراد إلى الايمان بأهمية فهم الناس والطبيعة ليتسنى المساهمة في التطور الاجتماعي العام أي تحركت الافكار من نسق الاعتقاد في المقدسات إلى الايمان بالعلمانية. وبهذه الكيفية تحولت الصيغة السائدة من الصور اللاعقلانية إلى صورة عقلانية مصطبغة بفلسفة عصر التنوير وانصرف الاهتمام من المقدسات والمفاهيم اللاعقلانية للحقيقة الفيزيقية و الاجتماعية إلى الصيغة العقلانية والعلمانية، وكانت تلك هي الخطوة الاولى في تطور العلم والطريقة العلمية.

النموذج الوضعي

وبتقدم المنهج العلمي منذ عصر التنوير سعى المفسرون إلى البحث عن عوامل تخضع لسيطرة الانسان ويمكن تعقلها وخضوعها للبحث والتجريب. وكان المنهج الذي وضعه في البداية "فرنسيس بيكون" بداية النموذج الوضعي واستعداداً لفلسفة عصر التنوير. فهذا النموذج يرى ان الطريقة العلمية وسيلة لكشف النظام الاساسي الذي تقوم عليه الحياة الاجتماعية، ومن ثم تؤدي إلى بلوغ الغاية في التقدم الاجتماعي. وهو تقدم رأى هؤلاء المفكرون أنه لا مفر منه.

وقد اعتقد "أوجست كونت" اعتقاداً راسخاً بامكانية تطبيق الطريقة العلمية بتقاليدها الوضعية (المعرفة المقتصرة على المعطيات المأخوذة من تطبيق الطريقة العلمية) لتساهم في التطور الاجتماعي للبشر نحو سعادة اشمل ووحدة اخلاقية.

وكانت الطريقة الوضعية أو العلمية بتركيزها على استنباط قوانين عامة من التجربة والمقارنة والاستنباط التاريخي مجرد وسيلة لتحقيق غاية التقدم الاجتماعي، متأثرة في ذلك بالاعتقاد العام بأن ثمة نظام فيزيقي واجتماعي اساس قائم على العقلانية.

وهكذا فإذا كان المناخ السائد في القرن الثامن عشر قد ادى إلى ظهور النموذج العلماني، فإن القرن التاسع عشر شاهد ميلاد منهج معد لتحويل هذا النموذج العلماني إلى معرفة علمية، وبالتالي إلى سيطرة اجتماعية اكبر.

الخلاصة

يكشف لنا تطور النماذج الاجتماعية ان المداخل السوسيولوجية المعاصرة لم تكن جامدة، ولكنها كانت تجدد نفسها باستمرار نتيجة تغير المجتمعات والمناخ الفكري وقد مرت المداخل الاجتماعية بمرحلتين:

المرحلة الاولى: مرحلة تكوين النظرية الاجتماعية التقليدية.

المرحلة الثانية: مرحلة تجديد النظرية الاجتماعية المعاصرة.

تعبر نظرية علم الاجتماع التقليدية عن محاولة للتوفيق بين فلسفات عصر التنوير والداروينية الاجتماعية والايمان بالمجتمع العلمي عند تفسير المجتمع.

ويعبر علم الاجتماع التقليدي عن الحركة من التفسير الخرافي والميتافيزيقي واللاهوتي الكنسي –النابع من فكر كنيسة العصور الوسطى في أوربا- لأمور المجتمع وما حدث داخله من تغيرات، وما نشأ من ظواهر اجتماعية، أي الحركة من التفسير الخرافي والميتافيزيقي واللاهوتي إلى الايمان بالنظام الطبيعي والعقلانية والمنهج العلمي وكلها اتجاهات نشأت عن فلسفة التنوير والفاسفة الوضعية، وتعكس هذه التطورات عدداً من الاتجاهات الواضحة، أهمها انتشار الفكر العلماني والرؤية العلمانية للعالم والحقيقة، والايمان بالانسانية والانسان والتحول من الكون إلى التفكير في المجتمع والانسان وتعبر هذه المتغيرات في انماط التفكير عن المتغيرات التي طرأت على البناء الاجتماعي والاقتصادي

والسياسي الاوربي، وتغير تفسير الانسان للحقيقة مما يعكس تزايد الوعي الاجتماعي في مرحلة معينة من مراحل التطور الاجتماعي.

وبإيجاز شديد نقول ان نضوج الدراسة العلمية للمجتمع واكتشاف علم الاجتماع ارتبط بظهور القيم العلمانية والعلمية.

الجذور الاجتماعية والتاريخية للنظرية الاجتماعية

ستحاول مناقشة الجذور التاريخية لعلم الاجتماع بتحديد الخصائص الاساسية للبيئات التي ظهر فيها النموذج العضوي ونموذج الصراع والسلوكية الاجتماعية.

الجذور الاجتماعية والتاريخية للنموذج العضوي

نشأ النموذج العضوي في علم الاجتماع اثناء سيادة المذهب الوضعي بتأثير ظروف معينة هامة سيطرت على المناخ السائد في القرن التاسع عشر يمكن ان نوجزها على النحو الآتي:

١. الثورات السياسية وانهيار النظم الاجتماعية في اوربا.
٢. التطور الصناعي الذي كان مناراً يسلط الضوء على اهمية حاجات المجتمع الاقتصادية إلى جانب حاجاته السياسية.
٣. الاتجاهات الفلسفية نحو حل مشاكل الانهيار الاجتماعي والثورة الصناعية، وتمثل هذه الاتجاهات توافقات بين فلسفة التنوير ووضعية القرن التاسع عشر.وقد أكدت هذه الاتجاهات ما يلي:

أ- الايمان بالمذهب الطبيعي، أي افتراض ان العالم الطبيعي يخضع لقواعد العلية.

ب- العقلانية أي افتراض ان الكائنات البشرية عقلانية في سلوكها.

ج- التطور الاجتماعي أي افتراض ان المتجمع يسير في تطور دائم.

د- الاصلاح الاجتماعي أي افتراض ان التقدم الاجتماعي هو الهدف الانساني.

هـ- اهمية الالتزام بإرادة المجتمع العامة (النزعة المحافظة في مضمونها).

و- تطبيق الطريقة التقليدية العلمية لتحقيق هذه الاهداف.

٤. ان هذه الاتجاهات الفلسفية تمثل الصفوة المفكرة من الطبقة العليا، والتي كانت آراؤها وأفكارها عن المجتمع محافظة وشمولية وتكاملية.

اذن النظرية العضوية نظرية وضعية عقلانية فلسفية واجتماعية تمثل توافقاً بين الافكار الفلسفية ورد الفعل للحاجات الاجتماعية والاقتصادية.

الجذور التاريخية والاجتماعية لنظرية الصراع

أما نظرية الصراع فقد ظهرت في ظروف مجتمعية مماثلة. لكن صاغها مفكرون كانت تجاربهم الاجتماعية مختلفة ولنا ان نحدد البيئة الاجتماعية التي وراء نظرية الصراع فيما يلي:

١. تأكيد قوي على جوانب عصر التنوير التي تؤكد التقدم الاجتماعي والتطور الاجتماعي وأهمية الطبيعة البشرية وعقلانية البشر والايمان بامكانية تغيير المجتمع لتحقيق أقصى حد من السعادة (مثالية).

٢. تأثير الداروينية الاجتماعية –أي تطبيق مفهوم التطور البيولوجي على تطور المجتمعات- التي تحدد ان الصراع هو الجانب الانساني والاجتماعي لهذا التطور.

٣. تجربة الصراع والتغير السياسي ولا سيما تجربة الضائقة الاقتصادية بسبب تصرفات الصفوة السياسية.

بيد ان نظرية الصراع أبعد ما تكون عن التجانس، فالبعض من منظريها كانوا محافظين في نزعتهم والبعض الآخر كان ثوريا متطرفا، كما يختلفون في التأكيد على النزعة الطبيعية أو الانماط السوسيولوجية الملائمة للتفسير. ولنا ان نقول ان هذه النظرية تطبيق لمبادئ ومثل عصر التنوير عن الطبيعة البشرية على التحليل التاريخي للصراع الاجتماعي وتستخلص في النهاية افتراضات سوسيولوجية تخص النظام الجديد حيث تكون الطبيعة البشرية وطبيعة المجتمع أكثر تنظيماً وتآلفاً.

الجذور الاجتماعية والتاريخية للسلوكية الاجتماعية

تأتي بعد ذلك المدرسة السلوكية التي تختلف عن المدخلين السابقين في تركيزها على الفرد على المستويات الصغيرة للتحليل وفي تطبيقها للاستقراء بدلاً من التفسير الاستنباطي، لكنها تشترك معهم في تطبيقها لمبادئ ومثل عصر التنوير على مشاكل المجتمع في العصر الصناعي التكنولوجي باستخدام الطريقة العلمية.

وبصفة أخص فالعوامل التي أدت إلى ظهور السلوكية الاجتماعية يمكن سردها فيما يلي:

١. مثالية عصر التنوير فيما يتعلق بطبيعة البشر والاعتقاد بأن الفاعل البشري فاعل حر ديناميكي وأن الدارونية الاجتماعية تفسر التقدم العام للمجتمع.
٢. التأكيد على الفردية النابع من البروتستانتية في الثقافة الامريكية، أي الاعتقاد بأن الفرد منضبط ذاتيا ومقتصد ودؤوب (ويستند هذا الاعتقاد على أفكار كالفن) وقد تركز محور اهتمام علم الاجتماع الامريكي حول طبيعة الفرد وعلاقته بالمجتمع.
٣. تأثير البرجماتية، وهي الفلسفة التي تقول بأن ما يفيد استناداً على التجربة هو الحق.
٤. أدى تزايد الحاجات والحاحها في المجتمع الحضري الصناعي إلى تطبيق العلوم الاجتماعية على الفرد وعلاقة الفرد بالنسق الاجتماعي. وقد تطورت هذه المدرسة بتطور علم النفس التطبيقي الذي ساهم في ظهور فرع من علم الاجتماع يهتم بدراسة الوحدات الصغيرة.

ومن الواضح من الحوار السابق ان النزعة السلوكية الاجتماعية تمثل تعميماً وتعميقاً لقيم عصر التنوير والمنهج العلمي لفهم المشكلات الناتجة عن قيم المجتمع الصناعي الحضري في نطاق قيم المجتمع. تلك القيم التي تتمثل في النزعة البرجماتية والاخلاق والبروتستانتية. ويكشف لنا ذلك بوضوح عن الاستمرارية بين

انساق القيم الاوائل ورد فعل علم الاجتماع لمشكلات المجتمع المعاصر، مع تأكيد جديد على فهم الفرد استناداً على مبادئ العلم.

الملخص

ولكن رغم الاختلاف بين هذه المداخل فهناك افكار مشتركة بينها نوجزها على النحو التالي:

١. الإيمان بقيم عصر التنوير التي تتعلق بالنظام الطبيعي وعقلانية الانسان.
٢. الإيمان بالتطور الاجتماعي نتيجة تزايد تأثير الدارونية الاجتماعية.
٣. إيمان مصاحب بحتمية التقدم الاجتماعي.
٤. الاستفادة من التفسيرات الطبيعية في تفسير السلوك الاجتماعي.
٥. نزعة مثالية تهتم بالطبيعة الانسانية والمجتمع.
٦. الإيمان بالوضعية والمنهج العلمي باعتبارهما منهجين اساسيين لتفسير وفهم تقدم المجتمع وبلوغ الحد الاقصى للتقدم.

والحقيقة ان النظرية التقليدية في علم الاجتماع تمثل توفيقا متجانسا بين فلسفة عصر التنوير والدارونية الاجتماعية والايمان بالمنهج العلمي.

ويكشف لنا تحليل الافكار الاساسية للنماذج الثلاثة بوضوح عن اتجاهات اساسية سيطرت على المناخ الفكري حينئذ:

١. تزايد الاهتمام بالنزعة الاجتماعية والانتماء إلى المجتمع بدلا من طبيعة الفرد.
٢. تغير المنهج إلى الاستخدام البرجماتيكي للمنهج العلمي بدلاً من الاستدلال التاريخي.
٣. حركة مصاحبة من فكر عصر التنوير إلى البرجماتية.
٤. التحول من الفكر المحافظ إلى اتجاهات اكثر ثورية عن الانسان والمجتمع، وتهتم بالانسان والمجتمع اهتماماً أساسياً.
٥. التحول من نظام يؤكد الحاجة إلى السيطرة والضبط الاجتماعي إلى نظام يؤكد الحاجة إلى التغير الاجتماعي.

٦. التركيز المتزايد على الانسان بدلاً من امكانية تكامل المجتمع.
٧. الاهتمام بالانسان بدلاً من تقديم تعريفات عن الحتمية.
٨. تضاؤل آراء الصفوة في أمور المجتمع والفرد.

وترتب على ظهور هذه الاتجاهات الجديدة، ظهور تيارات ونماذج تفسير في علم الاجتماع تعطي اهتماماً أكبر إلى:

١. الايمان بالعلمانية وأهمية تطبيق المنهج العلمي على أمور المجتمع.
٢. التأكيد على ان النظرية الاجتماعية هي دالة على عقلانية البشر واستجابة أصيلة من علماء الاجتماع للبيئة الاجتماعية المتغيرة والتي تأثرت بالتصنيع ومظاهر التحضر.
٣. التحول من النماذج الفلسفية ودراسة الوحدات الاجتماعية الكبيرة إلى النماذج التي تهتم بدراسة الوحدات الاجتماعية صغيرة الحجم والايمان بالعلم التجريبي.

مقدمة للنظرية الاجتماعية المعاصرة

بعد ان عرضنا في تحليلنا للمدارس الثلاث الكبرى في علم الاجتماع منذ نشأة النظرية الاجتماعية نتقدم خطوة إلى الامام، ونعرض لهذه المدارس بعدما تطورت ونضجت في علم الاجتماع الامريكي المعاصر. ورغم ان الظاهر يبين ان هناك علاقة وثيقة بين المدارس الاوربية والمدارس الامريكية الا اننا نقول ان المدارس الامريكية في علم الاجتماع لها طابع مميز بعدما تأثرت بالثقافة المادية والبرجماتية (النزعة العلمية) والثقافة النفعية. ومن ثم اتجهت النظرية الاجتماعية في امريكا إلى التجريب والدراسات التطبيقية. ورغم هذا التأثر بالمناخ الثقافي الامريكي فان الترابط بين المدرستين قوي جداً، كما تمثل النظرية الاجتماعية المعاصرة محاولة لتعميق النماذج الاوربية، واجراء دراسات تطبيقية عليها، وتبعاً لذلك فإن هذا التطور يعني احياء نماذج العضوية والصراع والسلوكية الاجتماعية في اشكال جديدة مثل البنائية الوظيفية والصراع المعاصر أي مدرسة علم الاجتماع الراديكالي والمدرسة الاجتماعية النفسية (علم النفس الاجتماعي).

نحاول في هذه المقدمة دراسة الاشكال الثلاثة للنظرية الاجتماعية المعاصرة، أي نعرض الجذور التاريخية لنظرية علم الاجتماع الامريكي ومراحل تطورها والبيئات التي ظهرت فيها هذه المناهج.

جذور النظرية الاجتماعية المعاصرة 1905-1918

يظهر لنا الاساس الذي قام عليه علم الاجتماع الامريكي ارتباطه الوثيق بمفكري أوربا في القرن التاسع عشر، واستناد العمل السوسيولوجي الامريكي على اعمال "كونت وسبنسر وداروين" والايمان بالقوانين الطبيعية والتغير الاجتماعي إلى الاحسن والاصلاح الاجتماعي والرؤية الفردية للمجتمع وارتفاع النسبة المئوية للعلماء الذين لهم تجارب وثقافات دينية وريفية، واعطاء التأكيد على مشكلات المجتمع الامريكي في اعقاب التطور الصناعي والحضري لمجتمع ما بعد الحرب الاهلية، وعلى العموم يمكن ان ننظر إلى علم الاجتماع الامريكي باعتباره استجابة من بعض مفكري الطبقة الوسطى للمشكلات الاجتماعية في امريكا، ولكن في ضوء تعاليم علم الاجتماع الاوربي في القرن التاسع عشر.

ولقد سيطرت النزعات العضوية والتطورية والمثالية على مضمون هذه المداخل كما كشف عن ذلك أعمال المفكرين الرواد مثل "لستروارد ووليم سمنر وفرانكلين جيدنج وسمول". فالنظرية الاجتماعية منذ نشأتها اتجهت إلى تطبيق النموذج العضوي على مشكلات وامور المجتمع الامريكي في اعقاب الحرب الاهلية، وهكذا يمكن ان نقول ان مضمون وسياق علم الاجتماع الامريكي يماثل مضمون وسياق علم الاجتماع الاوربي ومع ذلك فثمة مظاهر للخلاف بينهما ظهرت ونمت اثناء التطور المستمر لعلم الاجتماع الأمريكي بفضل تأثير الثقافة الامريكية المادية.

مراحل تطور علم الاجتماع الامريكي

ترجع مرحلة نشأة علم الاجتماع الأمريكي إلى الفترة من 1905 إلى1918، وبعد ذلك تطور علم الاجتماع الأمريكي تطوراً سريعاً، عبر أطوار أربعة، لكل طور خصائصه الواضحة المميزة.

الفترة الاولى: المرحلة العلمية 1918-1935.

حاول علم الاجتماع الأمريكي في هذه الفترة ان يتجه اتجاهاً علمياً أمبريقياً تنظمه القواعد المهنية والاكاديمية وبدأت التخصصات الفرعية في الظهور، وزاد الاهتمام بالمسوح الاجتماعية والدراسات التي تهدف إلى جمع البيانات مما أعطى تأكيداً واضحاً لتأثير البيئة الاجتماعية على تطور علم الاجتماع.

وهناك حدثان هامان أثرا تأثيراً كبيراً على البيئة الامريكية في هذه الفترة. وكان لهذين الحدثين آثارهما على تطور علم الاجتماع، أولهما الحرب العالمية الاولى وثانيهما الكساد العالمي في عام ١٩٣٠.وقد دعم هذان الحدثان الجهود التي تبذل للاستفادة من النزعة التجريبية في علم الاجتماع الأمريكي، وهكذا تحول علم الاجتماع إلى التجريبية في مجتمع رفع من شأن القيم المادية، وآمن ببناء اقتصادي قوي، وقد كان لهذا التغير مدى كبير على شكل علم الاجتماع الامريكي واهتمامه فيما بعد، اذ كان لهذا التغير آثاره التي دفعت إلى الاهتمام الاكثر بالطابع التجريبي وزيادة التخصص في مجال علم الاجتماع.

الفترة الثانية: البحث والتطبيق والنظرية 1935-1954

تزايد الاهتمام خلال تلك الفترة التي امتدت قرابة عشرين عاماً بالنزعة النفعية والطابع المهني وكما تعددت التخصصات في علم الاجتماع، ونمت التنظيمات التي تضم علماء الاجتماع. وزاد التأثر ببعض المفكرين الاوربيين مثل "دوركهايم وفرويد وفيبر"، ذلك التأثر الذي أسهم في نشأة وتطور النزعة السلوكية الاجتماعية وظهور النزعة الوضعية الجديدة في علم الاجتماع، وهما الاساس الذي بدأ منه النموذج الاجتماعي النفسي. وعلى العموم شاهدت تلك الفترة اهتماماً اكثر من علماء الاجتماع بالتجريب والخضوع لنظام اكاديمي، وتطبيق مبادئ العلم عند دراسة المشكلات الاجتماعية السائدة في امريكا.

الفترة الثالثة: نشأة النظرية المعاصرة في الصراع منذ الستينات من القرن العشرين

شاهدت بقية الستينات ميلاد نظرية الصراع في كتابات علم الاجتماع الأمريكي استجابة للمظاهر المتباينة للصراع الاجتماعي والعنصري داخل المجتمع الامريكي كله، والتراكم الواضح للآثار السلبية التي ترتبت على التصنيع والبيروقراطية، وبالتالي ظهرت محاولة في علم الاجتماع تتجه إلى اعطاء مزيد من الاهتمام لمظاهر الصراع من أجل تفسير تلك الاحداث، كما ظهرت محاولة أخرى في علم الاجتماع الراديكالي تحاول ان تدرس الاتجاهات التقليدية في علم الاجتماع الاوربي دراسة نقدية وان تكشف عن نمط جديد تطبيقي لعلم الاجتماع أكثر ملائمة مع حاجات المجتمع ومشكلاته، وظهرت تخصصات في علم الاجتماع تهتم أكثر بتحليل الحركات العنصرية والعلاقات بين البيض والسود معتمدة في تحليلاتها وتفسيراتها على الافكار الماركسية الجديدة، ومرة ثانية يتأكد لنا ان النظرية الاجتماعية المعاصرة تعبرعن ردود الافعال ازاء الاحداث التي وقعت في المجتمع الامريكي كله.

الفترة الرابعة: التكنولوجيا ونظرية الانساق الحديثة منذ السبعينات من القرن العشرين

يمكن ان ينظر إلى البيئة الجديدة لعلم الاجتماع وخاصة في فترة السبعينات التي تميزت بالكساد في العالم والانغلاق داخل القارة الامريكية بأنها بيئة جديدة سادت فيها اهمية الحاجات التكنولوجية والاقتصادية وظهر من جديد أهمية لتخصص الشامل والتحكم في الاوليات، مما ادى إلى ظهور النزعة البنائية الوظيفية في رداء عصري في شكل السيبرنطيقا ونظرية الانساق وتطبيق مبادئها في علم الاجتماع الحديث. وقد اعطى اهتمام شديد لجمع البيانات وتخطيط الانساق الاجتماعية التي تستجيب بكفاءة للحاجات البيروقراطية في وقت شحت فيه وندرت الموارد وتزايد حجم المشكلات الاجتماعية مما ادى إلى احياء النموذج العضوي

والبنائية الوظيفية في رداء جديد استجابة لظروف البيئة التي أعلنت من شأن الحاجات الكلية مرة ثانية.

خاتمة

يمكن تحديد مراحل تطور النظرية المعاصرة في علم الاجتماع على النحو الآتي:

١. المرحلة الأولى: المرحلة العلمية.
٢. المرحلة الثانية: مرحلة البحث والتطبيق والنظرية.
٣. المرحلة الثالثة: ظهور علم اجتماع الصراع و علم الاجتماع الراديكالي.
٤. المرحلة الرابعة: مرحلة التكنولوجيا ونظرية الانساق الجديدة.

ورغم انه يمكن النظر إلى هذه الاطوار باعتبارها وحدات متمايزه منفصلة، فمن الثابت ان التنظير في علم الاجتماع الامريكي يعبر عن عملية متسقة ومضطردة نسبياً، اذ تتمثل عملية التنظير في تطبيق الافكار الفلسفية الاوربية لتفسير المشكلات الاجتماعية المتغيرة في مجتمع يؤمن بالقيم المادية والبرجماتية والنفعية، وتوارت فيه القيم المثالية، مفسحة المجال في الوقت نفسه للنزعات النفعية والامبريقية وترتب على ذلك كله اتجاه النماذج النظرية الامريكية المعاصرة إلى تبني النماذج العضوية والصراع والسلوكية الاجتماعية في صور جديدة بما تحمل من خصائص النسق والشمولية والتطورية والتحليل على مستوى الوحدات الصغيرة أو الكبيرة، ولكن النظرية المعاصرة في علم الاجتماع فقدت الايمان المثالي بالتقدم الحتمي للمجتمع وتطوره، ذلك الايمان المتأصل في النظرية الاجتماعية التقليدية، وإلى حد ما، تراجعت النزعة المثالية امام زحف النزعة الواقعية والتجريبية في مجتمع يعيش اعلى مستوى من التصنيع والتحضر.

وبعد ان حددنا مراحل تطور نظرية علم الاجتماع في امريكا نعرض لخصائص البيئة التي ازدهر بها كل نموذج من النماذج المعاصرة.

البيئة التي نشأت فيها النماذج المعاصرة في علم الاجتماع

((الخصائص الاساسية للبيئات التي نشأت فيها النماذج الثلاث –الوظيفية البنائية- الصراع الحديث- المدرسة الاجتماعية النفسية))

البيئة التي ظهرت فيها النزعة البنائية الوظيفية

لقد ازدهرت النزعة البنائية الوظيفية مثلها مثل النزعة العضوية في ظروف أعلت من شأن حاجات النسق المتكاملة:

١. مشكلات التطور الاجتماعي والاقتصادي لمجتمع ما بعد الحرب الاهلية الامريكية.
٢. الآثار الاجتماعية والاقتصادية التي نجمت عن الازمة الاقتصادية في أوائل الثلاثينات.
٣. المشكلات التي ظهرت في اعقاب الحرب العالمية الاولى نتيجة للعزلة الامريكية وحتى الاربعينات.
٤. المشكلات المعاصرة المترتبة على التطور التكنولوجي والاقتصادي في السبعينات.
٥. تمثلت الاتجاهات الفلسفية نحو تفسير المشكلات السابقة في ظهور محاولات لتطبيق مبادئ الفكر السوسيولوجي الاوربي التي سادت في القرن التاسع عشر والتي تؤكد على القوانين الطبيعية والتغير الاجتماعي إلى الاحسن والاصلاح الاجتماعي والمماثلة العضوية عند تفسير المجتمع والإقلال من شأن وقدر المذاهب الفلسفية وتزايد الايمان بالتجريب.
٦. عكست البنائية الوظيفية مثلها في ذلك مثل النموذج العضوي آراء الصفوة المفكرة. ولذا كانت آراء هؤلاء بالضرورة شمولية محافظة.

ومن ثم لنا نلخص النموذج البنائي الوظيفي بأنه محاولة لتطبيق الفكر السوسيولوجي الاوربي في القرن التاسع عشر –لاسيما النموذج العضوي على مشكلات الانساق في امريكيا التي تتطور تطوراً سريعاً وفي بيئة تسود فيها القيم البرجماتية وترفض المثالية.

ان اهم مافي هذه النزعة هو الجذور الاكاديمية لمؤيدي ومنظري البنائية الوظيفية، فهم أبناء طبقة مميزة، تعلموا وحصلوا على أعلى الدرجات العلمية من معاهد وكليات اشتهرت بتقاليد معينة، وطابع مميز في مجال التعليم الجامعي كما شغلوا وظائف اكاديمية في اشهر الجامعات الامريكية صاحبة التقاليد الاستقراطية.

البيئة التي ظهرت فيها النظرية المعاصرة في الصراع

تمثل نظرية الصراع الحديثة مثلها في ذلك مثل النظرية الوظيفية البنائية تطبيق انساق الفكر السابقة على احداث تقع في مجتمع معاصر.

١. يحاول انصار نظرية الصراع الحديث تطبيق مبادئ النزعة المثالية والنزعة التقدمية اللتين سادتا في القرن الثامن عشر في اوربا على الواقع الامريكي المعاصر.
٢. تطبيق الافكار الماركسية الجديدة من اجل دراسة مدى تعقد الصراع الاجتماعي المعاصر.
٣. رد فعل لصور الصراع الاجتماعي العنيفة والخلافات العضوية التي ظهرت داخل الولايات المتحدة الامريكية.
٤. الاستجابة للآثار القهرية للبيروقراطية على الفرد وعلى علم الاجتماع الحديث.
٥. تطبيق افكار المصلحين الرواد على المشكلات الاجتماعية المعاصرة التي ترتبت على التصنيع والتحضر.

وبإيجاز تصور النظرية الجديدة في الصراع محاولة لتطبيق الافكار الماركسية الجديدة على مشكلات الصراع والبيروقراطية في المجتمع الحديث.

ويظهر للمرة الثانية الاتصال والترابط بين الفلسفة الاجتماعية القديمة والنظرية الاجتماعية المعاصرة.

البيئة التي ظهرت فيها النزعة النفسية الاجتماعية

تكشف لنا المدرسة الاجتماعية النفسية عن مدى التواصل بين الماضي والحاضر في النظرية الاجتماعية، ويؤكد ذلك ما يلي:

١. تطبيق المفهومات الفردية القديمة عن المجتمع عند تحليل المجتمع الحديث.
٢. توضيح وتطوير النزعة الفردية كما ظهرت في الاخلاق البروتستانتية عند تحليل المجتمع الحديث.
٣. تأثير المفكرين الاوربيين مثل "دوركهايم وفيبر" على تطور التحليل من مستوى الوحدة الاجتماعية الكبيرة الحجم إلى مستوى الوحدة الاجتماعية الصغيرة الحجم، والاستفادة من الرؤية الاستنباطية للمجتمع.
٤. تطبيق مبادئ النزعة التطورية المتفائلة، كما ظهرت عند بداية الداروينية على مبادئ الحياة الاجتماعية الجديدة.
٥. الوعي بتأثير البيروقراطية على الفرد، وما يترتب على ذلك من شعور بالاغتراب والسعي وراء البحث عن الذات.

ويمكن ان نوجز اهم افتراضات المدرسة الاجتماعية النفسية:

أنها تعبر عن محاولات لتطبيق مبادئ وافكار النزعة الفردية القديمة على احداث تقع في المجتمعات المعاصرة، ويبدو واضحاً مرة اخرى مدى التواصل بين انساق القيم القديمة، ورد فعل علم الاجتماع لمشكلات المجتمع المعاصر، مما أدى إلى ظهور نموذج يعطي اهتماماً أكبر للتحليل على مستوى الوحدات الصغيرة، وضرورة اتباع المنهج الاستقرائي عند دراسة المجتمع، معارضاً في ذلك النموذجين السابقين. ولكن توجد افكاراً مشتركة بين النماذج الثلاثة للنظرية المعاصرة في علم الاجتماع الامريكي:

١. الايمان بقيم عصر التنوير، كما تمثلت في الايمان بالقوانين الطبيعية والتقدم الاجتماعي والمماثلة العضوية.
٢. التأثير القوي لبعض المفكرين الاوربين مثل "دوركايم وداروين وفيبروماركس" على الفكر الامريكي.

٣. الايمان بالتطبيق لمبادئ المنهج العلمي عند حل المشكلات الاجتماعية المعاصرة.
٤. ظهور تفاعلات سريعة ازاء التطورات التي ظهرت في المجتمع المتغير مثل حاجات الانساق والصراع الاجتماعي وآثار البيروقراطية على الفرد.
٥. اعطاء مزيد من الاهتمام بالحاجات الانسانية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في بيئة يغلب عليها الثقافة المادية والنفعية والبرجماتية.

بيد ان تحليل النماذج الثلاثة المعاصرة يقودنا إلى اكتشاف الاتجاهات الآتية:

١. الحركة من النماذج التي تهتم بالوحدات الاجتماعية الكبيرة إلى النماذج التي تهتم بالوحدات المكونة من عدد صغير من الافراد.
٢. تغير الاهتمام من النزعة البنائية الوظيفية التي تهتم بالمجتمع كله إلى النزعة البنائية الوظيفية التي تهتم بالفرد.
٣. تغير ايمان النزعة البنائية الوظيفية من الايمان بالنزعة العضوية إلى الايمان بالتكنولوجيا والسيبرنطيقا.
٤. التحول من نظرية بنائية وظيفية استاتيكية تؤمن بالتوازن إلى نظرية بنائية وظيفية ديناميكية تؤمن بالتطور.
٥. التحول من منهج الاستقراء التاريخي إلى التأكيد على المنهج العلمي التجريبي.
٦. التحول من استخدام ادوات البحث الوصفية إلى استخدام مناهج البحث العلمي وادوات بناء النظرية.

وتكشف لنا هذه الاتجاهات الحركة العامة من نظرية استاتيكية تهتم بالوحدات الكبيرة الحجم والتفسيرات العضوية إلى نظرية تهتم بالوحدات الصغيرة الحجم والنمط التكنولوجي والديناميكي، بيد ان النظرية الاجتماعية المعاصرة استمرت في تطبيق النماذج الاوربية الرائدة في التطورات المتغيرة في المجتمع المعاصر في بيئة تسودها الثقافة المادية والبرجماتية والنفعية. ومن ثم يمكن ان ننظر إلى النظرية الاجتماعية المعاصرة

باعتبارها تطبيقاً ديناميكياً جديداً للنماذج الاوربية القديمة على المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع الامريكي المتطور الذي يسيره ويحكمه نسق قيم النفعية، مما يؤكد لنا الاستمرار التاريخي والتطور الديناميكي المستمر لعلم الاجتماع.

د. رياح مجيد الهيتي